المطبوعة وغير المطبوعة التي اتحفت بها مصر في كثير من العلوم القانونية والرياضية والحربية والتاريخية (اذكان المرحوم السيد صالح بك مجدي شريكاً للمرحوم رفاعه بك وعلي باشا مبارك في ترجمة ووضع معظم الكتب العلمية التي اخرجها قلم الترجمة في عصري سعيد باشا واسماعيل باشا)

وكان في حوزة الفقيد مكتبة كبيرة غنية بالمؤلفات العالية والمخطوطات النادرة علاوة على مجموعات اثرية للفنون المصرية والعربية

وكان رحمهُ الله متضلعاً ايضاً من العلوم الالهية والنفسية وعضواً في مجمع العلوم النفسية بباريس (Institut Metapsychique International) وعمدة في التاريخ الاسلامي والمصري القديم

وبالجملة لا يمكننا ذكر جميع ما لهُ من الفضل على هذه البلاد فقد تفانى في خدمتها وخسرت بفقده اكبر عالم قانوني واشهر قضاتها عدلاً ونزاهة واستقلالاً وانهدم بفقده ركن عظيم من محكمة الاستئناف وفقد العلم في شخصهِ مؤرخاً وعمدة في علم الطبائع والاخلاق عوضنا الله فيهِ خيراً احمد مريديه

المكروبات القديمة واصل الامراض(١)

المكروبات من اقدم سكان هذه الامراض وقد ذهب بعض العلماء الى ابعد من ذلك فقالوا انهُ بينما كانت الارض في دور التكوين سقطت المكروبات عليها من السيارات القاصية على متون الرجوم والنيازك ومهما يكن من هذا الرأي فاننا نجد آثار المكروبات في اقدم الصخور الاميركية التي تنطوي على بقايا الحيوانات القديمة . واول من اكتشفها الدكتور ولكوت فانهُ وجدها مدفونة متحجرة مع النباتات البحرية الصغيرة المعروفة باسم « الجي » . ولم تكن تلك المكروبات من النوع المسبب للامراض بل من النوع الذي يساعد على استخراج الكلسيوم من ماء البحر لتكوين الصخور . ولهذه المكروبات الآن ما يشبهها في الاوقيانوس الاتلنتيكي وهي تعمل على الخصوص حول جزر الهند الغربية في تكوين الصخور المرجانية

(١) من مقالة للستر مودي الاميركي من اساتذة جامعة الينوز

وشكلها يشبه المكروبات الحديثة الى حدّ ان سميت باسم احد اشكال المكروبات الكثيرة الشيوع الآن (Micrococcus) . وقد اختلف العلماء في امكان تحجر هذه الاحياء الرخوة القوام . على ان مباحثهم كادت تثبت ان ذلك ممكن بدليل وجود مواد اخرى متحجرة وهي ليست اشد قواماً من المكروبات. فقد وجدوا ادمغة وازهاراً ودماً وعضلاً متحجرة ومحفوظة كلّ الحفظ حتى امكنهم فحص تركيب خلاياها والسجتها على دقتها . ووصف رينول عدداً عظيماً من المكروبات في الفحم الحجري المستخرج من فرنسا حتى لم يبقَ ريب في ان البقايا التي رآها ووصفها هي بقايا مكروبات

على ان المرض لم يوجد مع اقدم تلك المكروبات لانها كانت عديمة الضرر مثل معظم المكروبات في عصرنا هذا. ولا نعلم هل كان للمكروبات يد في وجود الامراض فان هذا البحث عريض طويل لم يمكن احداً منهُ حتى الآن . وجهد ما نعلم ان المكروبات وجدت في عصور تالية في العظام النخرة بعض الشيء مع بعض اصناف المكروبات الفطرية التي تولد العفونة . ولكن هذه الحالة لا يمكن تسميتها مرضاً بل هي فساد طارئ على المواد الميتة . فقد كانت الحيوانات الاولى خالية من الامراض وانما كانت عرضة للطوارئ العادية التي تتعرض لها جميع الحيوانات . كان الكبير يسطو على الصغير كما يسطو عليهِ الآن ولم تكن جروح الحيوانات الاولى تفسد وتتقيح كما تفسد الآن ودام هذا الحال الى ما بعد عصر الفحم الكبير

وفي عصر الفحم هذا كان بدء انتشار المكروبات من بكتيريا وفطر . ولعلّ الامراض بدأت فيهِ ايضاً وان يكن قد سبقتها حالات مرضية ناشئة عن فعل الحلم . والحالات المرضية الاولى التي حفظت الى يومنا هذا ليست اول مظاهر الامراض لان المرض هو بلا ريب نتيجة عراك طويل الامد بين قوتين من قوى الطبيعة . وقد كانت المناعة من الامراض من اوصاف الحيوانات الاولى فلم تقوَ الامراض على الحيوانات وتتمكن منها حتى باتت اضعف مما كانت على مرّ الزمن

وليس من السهل تعيين الزمان الذي بدأت الامراض تظهر فيهِ . وغاية ما يقال انها لم تكن موجودة في اوائل عمر الارض ولم تقوَ شوكتها وينبسط ظلّ سلطانها حتى بلغت الارض عمرها الحالي وهو يشدو بنحو ثلاثة ارباع عمرها

المقدور لها . وبعبارة اخرى ان الامراض لم تنتشر الاَّ في الربع الاخير من عمر الارض او من عمر الحيوان والنبات عليها . وقد ظهرت الامراض بطيئة وعاشت بطيئة ولم تكتسب اهميتها الاَّ في عصور حديثة بالنسبة الى العصور الاولى. وبقيت عاملاً صغيراً لا يؤبه لهُ ملايين من السنين

واول دلائل الامراض التي عندنا فعل الحلَق الاولى في اصداف الحيوانات القديمة . فقد نشأ عن هذا الفعل تكوُّن اقدم البثور والدمامل . ونشأت في اوائل الحياة الحيوانية حالات مرضية عن سمّ الماء الذي كانت الحيوانات تعيش فيهِ . واعراض هذه الحالات تضخم الصدف وتلوّي المداخل القولبية في اصداف الحلازين او صغر حجوم بعضها الى جزء من عشرين من حجمها الطبيعي

وفي العظام المتحجرة من بقايا الانسان الاول والحيوانات البائدة المعاصرة لهُ ما يدلُّ على آثار الامراض التي كانت تصاب بها وعلى ان بعضها كان يعدي بعضاً. فقد وجد ان ناس العصر الحجري ودببة الكهوف وغيرها من الحيوانات التي كانت تسكن الكهوف في ذلك الزمن كانت تصاب بمرض واحد كما يستدلُّ من عظامها

وآثار الامراض التي وجدت على العظام هي نتيجة عوارض خفائية من كسر وشدخ مما لا يعرض حياة الجنس للخطر وقلما يعرِّض حياة الفرد لهُ . والدلائل ضئيلة كما لا يخفى لانها لا تجاوز ما يرى على العظام ولكن معرفتنا الحاضرة عن نشوء الحيوانات في الماضي مبنية على مثل هذا الاساس الضئيل على صحتها. وكثير من الامراض الوبيئة المعروفة اليوم والتي تجرف الناس جرفاً لا تترك اثراً على العظام . فلا يبعد ان تكون هذه هي الحالة ايضاً فيما مضى

فيرى مما تقدم ان تاريخ ظهور الامراض ضائع في زمان طويل مدلهم كانت فيهِ عوامل النفع والضرّ في الطبيعة تتنازع البقاء والسيادة. وكانت المناعة الشديدة من مزايا الحيوان الاول حتى لم يكن يعدو على حياتهِ عادٍ . وبقي الحال على هذا المنوال حتى ادركت الشيخوخة انواع الحيوان واجناسهُ وعرضت لمناعة الحيوان الطبيعية عوامل سلطت الامراض عليهِ . ولا مشاحة ان حيوانات البابسة الاولى عاشت اعصاراً طوالاً لم تخشَ فيها فاتكة العدوى من الداخل او من الخارج . وكان المرض اذ ذاك في اوائل عهده فتفشى بواسطة هذه الحيوانات حتى ملأ وجه الارض على توالي العصور الجيولوجية الطويلة